نبذة من حياة شيخ الجماعة رئيس المجلس العلمي بفاس

أبي العباس سيدي احمد ابن الخياط رحمه الله

الاستاذ العلامة الطاهر الفاسي الفهـري

هو احمد بن محمد بن عمر بن عبد الهادى ابن العربى ابن محمد - فتحا - الخياط الزكارى الادريسى الحسنى ، بيتهم بيت فضل ومجـد وحسـب ، ويكفيهم مفخرة شخصية المترجم اللامعـة ، ذات الشهرة الذائعة ، التى ارتوى من معينها عموم علماء المغرب .

حيـاتـــه

ابصر المترجم نور الوجود فى 16 شعبان عام 1252 هـ وتربى فى حضن الطهارة والمروءة والعفاف تربية اسلامية نظيفة ، وكانت تلوح عليه — منذ حداثة سنه بشائر النبل والاستقامة والصلاح ، وبعد ما ترعرع وقطع أطوار التعليم الاولى حسب المناهج القديمة ، اصبح يغترف معارفه من ينابيع كبار علماء وقته كأبى العباس بنانى — كلا — (1306) وشيخ الجماعة ابى عبد الله محمد بن عبد الرحمن الحجرتى (1275) ومولاى عبد الملك العلوى (1318) وابى العباس احمد المرنيسى (1277) وابى عبد اللـه الحاج محمد بن المدنى جنـون (1302) وهـو عمدته ، وكان اول معلم له هو والده الذى ادبه فأحسن تاديبه ، ومهد له الطريق حيث كان كثيرا ما يصحبه معه لحضور مجـالس المذاكـرة للتفتـح والاستفادة ، والتأهب لما ينتظره من حمل الامانة .

ولم يزل — رحمه الله — عكوفا على دراسة العلم لغة ونحوا وتفسيرا وفقها وحديثـا ومنطقا واصولا بجد واجتهاد ، وقريحة وقـادة لا يعـرف الكسل ولا الملل اليها سبيلا ، حتى عـلا كعبـه ، وامتلات وطابه ، فأصبح كعبة القاصدين التى يحج اليها كل المتعطشين للارتواء من مناهلهـا العذبـة الفياضة ، ولم يكونوا يخفون اعجابهم من ادراكـه القوى ، وفهمه الجيد ، ونظره السديد ، وذهنه الثاقب ، مع بيان معرب ، واسلوب مفهم ، ولـم تكن دروسه العامرة فى مختلف الفنون والعلوم بمائق له عن مهمتين جسيمتين :

الاولى ، الفتوى ، فقد كان يتراس مجالس الشورى بين العلماء للفصل فى القضايا المهمـة ، وكانت ترفع اليه طلبات الاستفتاءات فى النـوازل والمشاكل من حواضر المغرب وبواديه حتى فشت فتاويه فى سائر الارجاء ونالت اعجابا وثناء وتقديرا ، لفضها المشكلات ، وقطعها دابر النزاعات ، وكان — رحمة الله عليه — لا يتقاضى عنها اجرا ، ولا يقبل عوضا .

المهمة الثانية : التاليف .

كانت عادة المترجم الا يترك مسالة سئل عنها، او نازلة عقدت المجالس للنظر فيها ، او مشكلة حررها فى درس من دروسه الا توسع فيها ، وكتب ما تحصل منها ثم عنون لها عنوانا يناسبها ، رغم أن الكثير منها تستوعبه بعض صفحات ، مما يدل على روحه العلمية ، وجهوده المضنية .

وقد وقفت فى آخر فهرسته الوسطى على ما يناهز المائة ما بين شرح وحاشية وتقييد منها :

1) مختصر فى التوحيد .

2) حاشية على شرح ابى السعود سيدى عبد القادر الفاسى — فى المصطلح — وقد قال عنها شيخنا وابن عمنا المرحوم العلامة المؤرخ النسابة سيدى عبد الحفيظ ابن الطاهر الفاسى فى كتابه — معجم الشيوخ — انها احسن حواشيه .

3) حاشية على شرح الخرشى على فرائض مختصر الشيخ خليل .

4) تاليف فى العقائد على مذهب المتكلمين .

5) مختصر فى القلم الفاسى المصطلح عليه لدى الموثقين القدماء وقد انقرض أو كاد لذهاب عارفيه .

6) شرح ابيات للشيخ ابى حفص سيدى عمر الفاسى فى الموجهات من علم المنطق .

7) تلخيص القول الوجيز ، فى قمع الزارى على حملة كتاب الله العزيز لشيخ المقرئين فى وقته العلامة الامام سيدى محمد بن عبد السلام الفاسى ، مؤلف المحاذى وغيره (1214) .

ومن المؤسف جدا أن قليل القليل منها هو المطبوع او المعروف والكثير منها سطت عليه يد الزمان ، ونسجت عليه عناكب الاهمال والنسيان ، ومن الغريب جدا اننى ما زلت اتذكر يوما من الايام سالت ولد المترجم الشريف العلامة المشارك المدرس النحرير سيدى عبد العزيز رحمه الله عن الفهرسة الكبرى لوالده فاكد لى رحمه الله انه لا يملك واحدة من فهارس والده الثلاث ، فعجبت لذلك واسفت على ضياع تراث علمائنا ومجهودات سلفنا ، فلله الامر من قبل ومن بعد .

وقد امكننى بوسائلى الخاصة أن اطلع على الفهرسة الوسطى للمترجم عند حفيده الاستاذ الطيب ابن الخياط واخذت منها نسخة بيدى .

تغيير طارىء جذب المترجم الى ساحة القوم .

واذا عرفنا ان الرجل كان لين الطبع ، دمث الاخلاق ، مرهف الحس ، قامعا لنزوات النفس ، عزوفا عن الدنيا ، زاهدا متقشفا ، منكبا على مطالعة كتب القوم .

فلا نعجب اذا رايناه وقد مرت عليه حقبة من الزمان انغمر فيها مع بعض رفاقه فيما ينغمر فيه الصوفية والزهاد السائحون ورغما عن محاولة شخصيات علمية ارجاع المترجم الى حلقات دروسه ، وافادة المتعطشين لمعارفه وعلومه ، فقد كان الفضل فى اقناعه لشيخه الشريف العلامة المشارك الصالح مولاى عبد الملك العلوى المدغرى رحمه الله .

ولذلك مهما ذكر مولاى عبد الملك بحضرة المترجم الا فاضت عبراته ولاح تاثيره وخشوعه .

وما هى الا ايام وايام حتى انقشعت السحب ، وبدت الغزالة بعد ما توارت بالحجب واستانف المترجم نشره للعلوم ، درسا وتاليفا ، وبحثا وتصنيفا.

ولما تقرر تاسيس نظام للقرويين وادخال اصلاح على هيكلها العلمى على عهد جلالة السلطان المقدس المولى يوسف سنة 1332 هـ كان المترجم المرشح الاول لرياسة المجلس العلمى لمكانته العلمية ، ومشيخته للجماعة ، فاسندت اليه سنة 1333 هـ بظهير شريف ، فكان فيها مثال النزاهة والحفاظ على النشاط العلمى والمقدسات الدينية ، كما كان مرجعا للشورى وحل المشكلات .

ثم توفى رحمه الله يوم الاثنين 12 رمضان سنة 1343 هـ واقبر بمضجعه الاخير بحى الرميلة بفاس مأسوفا على علمه وفضله وصلاحه .

(7)